مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 1 (مارس) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

العمران الديني في الحاضرة الجهوية تيهرت/تاقدمت خلال العصر الإسلامي الوسيط: شواهد تاريخية وأخرى أثرية تكشف عن الماضي اللاتيني للموقع.

Religious urbanization in the regional metropolis Tihert/Tagdemt during the medieval Islamic era: Historical and archaeological evidence reveals the Latin past of the site.

اسم ولقب المؤلف المرسل: عباد محمود- ABBAD Mahmoud صص103-120
الدرجة ومؤسسة الانتماء: طالب دكتوراه ل.م.د- جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة- (الجزائر).
البريد الإلكتروني: abbadmahmoud38@gmail.com

تاريخ استقبال المقال:2020/12/01 تاريخ المراجعة:2021/01/06 تاريخ القبول: 2021/01/24

الملخص: يُناقش هذا العمل الموجز الهياكل الدينية التي اشتغلت في مساحة المدينة تيهرت مسرح بحثنا خلال الفترة ما بين النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الرابع الهجري، وبشكل مهم سيكون العمل حول تحقيق كُل من المسجد الجامع الذي يشكل إلى حد الساعة أحد الحلقات المظلمة في أخبار "تاريخ" المدينة، وهذا من حيث محاولة تحديد موقعه أولاً داخل الفضاء الحضري انطلاقا من مقاربات جغرافية، ومن ثم متابعة تشكيلاته البنائية وديناميكية تواصله أو تقلصه طيلة الفترة الرستمية (162-296هـ/779-909م) وحتى إلى ما وراء وصول الهيمنة الفاطمية التي اجتاحت المنطقة ككل؛ ثُم الأمر سيكون كذلك بالنسبة لمطالعة أخبار البعض من مساجد أوقات الصلاة، وأيضاً مصلى الجنائز الذي يطرح تمييزه هو الآخر مُشكل كبير؛ وأخيرا تقصي مسألة هوية الكنيسة "المغمورة" التي تحدث حولها مصدر ابن الصغير، والتي هي جُزء من المدينة، وعن تدبير صحة مكانها وعمقها التاريخيين. وبالإجمال فإن تحليل كل ذلك سيكون على مستويات مختلفة.

الكلمات المفتاحية: المدينة تيهرت؛ تاقدمت؛ المؤسسات الدينية؛ الرستمية؛ المسجد الجامع؛ الكنيسة.

Abstract: *This brief work discusses the religious structures that occupied the area of the city Tihert which is the subgect of our research during the period between the second half of the second centruy and the beginning of the fourth century Higri. Importantly, the work will be about achieving each of the mosque-algamie, which constitutes up till now the dark parts of the «History» of*

the city. This is in terms of trying to locate it first within the urban space from geographic approaches, and then follow up the structural formations (162-296 Higri/ 779-909 AD) And even beyond the arrival of the fatimid domination that swept all the region, the nit will be so for news of some of the mosques of times prayer. Also, the funeral chapel whose distinction also poses amajor problem. Finally, investigate the identity of the church The «submerged» that of Ibnal-Sagjir spoke about, which is a part of the city, and about managing the trueth historical of its location and depth. Generally, the analysis of all of this will be at different levels.

Keywords: Tihert city; Tagdemt; Religious Establishments; Al Rostomia; The mosque; the Church.

المقدمة: كبقية العديد من المدن المغاربية- وما نتأمله أيضاً في المشرق الإسلامي- نجد أنّه قد تَّشكل لدى المركز الجهوي تيهرت تاقدمت قسم هام من المنشآت الدينية التي ساهمت بشكل أو بآخر في ازدهارها، وهذا طبعا نتيجة لما تستدعيه مدن الحواضر- على غرار المجالات الريفية أيضاً ولكن بدرجة أقل- من ضبط مؤسسات وقواعد مُنظمة تربط الجماعات المسلمة في الغالب بأعمالها مع الله، وفي نفس الوقت لقد شكَّل الجو العام مظهر من مظاهر استقطاب القائمين عليها منذ لحظة تأسيسها على يد الإمام الأول عبد الرحمان بن رستم في حدود سنة (162هـ/779م) للمتبرعين والمتدينين الإباضية وغير الإباضيين القادمين من جهة الشرق بدرجة رئيسية على حد سواء.

وعلى الرغم من أن العُمران الإباضي في المدينة تيهرت تاقدمت كان موضوع اهتمام لعدة أعمال تاريخية وأثرية على مدى السنوات الخمسين الأخير[1]، غير أنّ جغرافية البُنى الدينية لايزال الفحص فيها يتطلب المزيد من التوضيح وتدقيق النقاش، وهذا نظرا لما نلمسه من تشكيك في بعض النتائج التي تم الخلاصة إليها، خُصوصا فيما يتعلق بترسيم التوطين المجالي لما هو موجود من مراكز الوعظ والصلاة داخل المدينة.

رُغم الصعوبة فقد بات من الضروري اليوم إجراء دراسة تستند إلى قراءة دقيقة ونقدية للمصادر والاستناد على البيانات الأثرية من أجل المساهمة في إعادة تركيب الخارطة العامة للمشهد الحضري الذي ميز المدينة خلال الفترة موضع الدراسة، بحيث سيتعين علينا البحث بدءاً بالمسجد الجامع الذي من دون نقاش يُحسب في نصوص تاريخ المدن كركيزة إسلامية مهمة، هذا إنّ لم يكن دائماً هو أول شكل تتم هندسته قبل المُباشرة في انجاز ما هو منتظر من أقسام التعمير، كما يَتوجب علينا ملاحقة الإشارات النادرة جداً في

المصادر حول الحديث عن باقي المصليات الموزعة داخل المدينة، أو لنقل على الأقل عند أغلب التركيبات الإثنية أو الجهوية التي كانت قائمة في البعض من الوقت الرُستمي، وفي الأخير سنحاول الإجابة قدر الإمكان عن القضية المطروحة حول وجود الكنيسة في فترة المدينة الإسلامية الرُستمية، خصوصا فيما يتعلق بشكوك التأسيس والموقع، وجدلية حداثة القاعدة. وفي الأخير لا شك سيسمح لنا المقال بأخذ انطباع ولو جزئي عن العمارة الإباضية في الشق المغاربي.

1- المسجد الجامع: رُغم أنّ المسجد الجامع يُشكل أحد الأيقونات المميزة للمدينة التيهرتية، ومع ذلك نُسجل أنّ وصفه يَقِل في مختلف المصادر الوسيطة، ولا نكاد نجد تفاعلاً ايجابياً معه إلاّ في بعض الإضاءات التي لا يمكن أنّ تُغطي المطلوب، ولاشك أنّ مثل هذه التحفظات ببساطة لا يمكن تفسيرها سوى لأَن المؤلفين القُورسطيين ركزوا في أحسن الأحوال بالإنبهار فيما تعلق بنشاطات السلالة الرستمية، التي تداولت على ما هو معروف بمنصب رتبة الإمام.

في بادئ الأمر نجد أنّ نص الجغرافي البكري العائد إلى القرن الخامس الهجري (11م) والذي اعتمد أساساً في نقل أخباره حول المدينة تيهرت على الكتاب المفقود لمحمد بن يوسف الوراق (291-362هـ/ 904-973م)، يُقدم رواية تُترجم المنظر الوحيد والمتداول لاحقاً في مصادر أخرى ثانوية (بمعنى النُقول)، مع أنّ عرضه هذا مُتأخر قليلاً للإلمام بالظروف التي أدت إلى بناء المسجد الجامع، فهو يقول بالحرف الواحد: "وأدركتهم صلاة الجمعة، فصلى بهم هناك (عبد الرحمان بن رستم)، فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد ظهر في الشعراء، فأخذ حياً وأتي به إلى الموضع الذي صلوا فيه، وقُتل هناك، فقال عبد الرحمن بن رستم: هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبداً، وابتدأوا من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجداً[2]".لا شك أن التوجه الملحوظ في تعامل النص لم يخلو من رغبة أكيدة لأسطرة ولي نعمة الإباضية في تأسيس هذه الحاضرة المُلطخة بدم الأسود، مثل ما كانت النية واضحة في المصادر التي عبرت هي الأُخرى -بما فيهم البكري- عن تأسيس المدينة الجبلية "تيهرت الأعلى" التي وقع عليها الاختيار الأول[3]؛ هذا ويُفهم من خلال ما ورد في سياق رواية البكري -إذا صح بعضه- أنّ اختيار يوم الجمعة بالذات له ما يميزه من حصول البركة عند جمهور المسلمين.

في الواقع أننا نجهل المكان الذي اختير لبناء هذه المؤسسة الدينة، بحكم أنّ البكري وغيره تجبنوا الحديث حول هذه النقطة المهمة بالذات، وهو ما يدفعنا لنتساءل حول ما إذا اختار الإمام عبد الرحمان بن رستم إنجاز الجامع عند مركز المساحة التي سيتم استثمارها في البناء حتى يطبع سُرة المدينة في وقت لاحق، مثلما نشاهده مع كبريات المدن الإسلامية أثناء تأسيسها[4]؟ أم أنّ الوضع سيقتصر على اجتهادات رستمية خارجة عن المألوف، خصوصا وأنّ القُرعة قد كشفت عن أسلوب لم يكن معتاد من قبل في العمارة الإباضية لدى بنائهم المسجد الجامع في أرضية تيهرت الأعلى؟[5]

انطلاقا من هذه التساؤلات التي ترتبط دائما بضعف الإشارات المصدرية حولها، يبدو لدينا بعض المقاربات المتصلة بأحداث تاريخية متفاوتة من حيث قيمتها، وعلى منوالها سنحاول أنّ نجد للمدينة اتجاه جامعها الواحد فقط[6].

يبدو من خلال نص ابن الصغير الذي تَحدث فيه عن دخول رسل إباضية البصرة من باب الجدار الشرقي أنهم "أخذوا يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الإمام عبد الرحمان حتى وقفوا عليها[7]"، ثم يعود ويزودنا نفس المؤلف بإشارة ثانية مفادها أنّ بيت الإمام لم يكن يبعد بمسافة كبيرة عن المسجد الجامع، وذلك في استعماله لفظ "نخرج إلى المسجد الجامع فنصلي بالناس[8]". رُبما هذا سيعكس حضور البنايتين مجتمعين في نفس القسمة الواحدة داخل الفضاء الحضري، وبالتالي لا نتصور أنّ المسجد الجامع كان حُضوره مؤكد في الجهة الشرقية، أو حتى القريبة منها، بدليل لو أنّ الأمر كذلك فإن هذه الجماعات الوافدة لم تكن مجبرة على تكثيف مباحثاتها عن بيت الإمام، هذا أولا، ومن زاوية ثانية سنشاهد نفس السيناريو يتكرر على خلفية انتظار الإباضية عودة فارسهم أبو حاتم حفيد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي انتقل في حركة خارجية من أجل تأمين واحدة من القوافل التجارية التي كانت قادمة على الطريق الشرقي خوفا أنّ تعترضها بعض الغارات في المناطق التي تحت سيطرت الجماعات الزناتية، أين يكشف ابن الصغير في كلامه "لما وصل إلى باب المدينة ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوا، فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه[9]"، مما قد يؤشر للمرة الثانية عن وجود مسافة معتبرة تفصل الباب الشرقي عن المسجد الجامع.

هذا ويبدو من المستبعد أيضاً أنّ يكون المسجد الجامع قد أُسس في مركز المدينة، بدليل أنّ شهادة ابن الصغير جاءت لتكشف لنا عن وجود أحد مساجد الأوقات في هذه المنطقة المركزية بالذات[10]، ولا شك في أن القاعدة الشرعية المتعلقة ببناء المساجد تنص بالإجماع أنه لا يُمكن بأي حال من الأحوال الجمع بين مسجدين في مكان واحد إلا بمقتضى عدم الاكتفاء، أو في حالة ثانية وهي عدم القدرة على إحداث توسعة في الجهات المجاورة[11]، ونحن ندرك جيدا أنّ المسجد الجامع الذي بُني أولاً له طاقة استيعاب يمكن أنّ تحوي كامل المصلين القاطنين في المدينة، أو على الأقل أغلبهم في وقت الجمعة، فما بال باقي الصلوات الأخرى المفروضة، وما يهمنا من ذلك جميعا أنّ وجود المصلى دليل ينفي بالجملة امكانية أنّ يكون المسجد الجامع موجد أيضاً في نفس الفضاء المركزي.

وعليه من خلال ما سبق يَظهر أنّ المسجد الجامع تم بناؤه في الجانب الجنوب-غربي من المدينة، فقد جاء في نص المقديسي خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (10م) إشارة تحمل في مضمونها أنّ بناء المسجد الجامع كان قريب جداً من سوق المدينة[12]، وهو ما يتوافق فعلاً ونفس هذه الجهة التي تستقبل سلع المتاجرين في ساحات العرض والطلب. علاوة على ذلك يمكن أنّ نُحدث مقارنة بسيطة بين موقع منبر الجمعة في كل من الفضاء الحضري للمدينتين تاقدمت وتيهرت الجبلية، سيظهر أنّ كليهما يجلسان في الجهة الجنوبية الغربية، وما سيزيد من مصداقية تصورنا لاختيار القيادات الإباضية هذه الناحية بالضبط هو أن جامع مدينة سدراتة الصحراوية الذي تأسس على أيدي بعض المهاجرين من تاقدمت يرتكز أيضاً هو الآخر في نفس هذه الجهة الجنوبية القريبة من الجدار الغربي، وهو ما تكشف لنا عنه مجموعة من النقاشات الأكاديمية الحديثة[13].

أما بخصوص الهيكل العام للمبنى، فقد تحدث ابن الصغير أنه حضر في سنوات إقامته بالمدينة أحد مجالس الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح وهو يجلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي[14]، يأتي هذا ليثبت وجود مساحة لا بأس بها في هذا الاتجاه حتى تسمح بعقد حلقات الفكر الإباضي. كما ورد في ذات السياق من شهادة ابن الصغير أنه رأى الإمام كان "إذا جلس بالمسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبلا الباب البحري[15]"، ما يعني اطلاعنا بوجود مدخل يفتح على حائط الشمال، وربما هنا

الإشارة بتركيز على تحديد جهة الباب في النص السابق يُفسر وجود أبواب إضافية، فقط المشكلة أنها لم تحضي بفرص توظيفها في مختلف مصادرنا.

لقد ورد في نص البكري إشارة هامة في الموضوع، مفادها أنّ هذا الجامع الذي أستخدم في بنائه الأشجار المقتطفة من نفس الجهة يحتوي على أربعة بلاطات، مضيفاً أنّه بقي محافظ على صلابته إلى اليوم، وبما أنها معلومات يوسف الوراق فهذا يعني إلى حلول منتصف القرن الرابع الهجري (10م)[16]، مما يدل على مزاولة استخدامه خلال الفترة الفاطمية دون أي تبديل ملحوظ، خصوصا فيما يتعلق بإحداث توسعة جديدة. أما بالنسبة إلى البلاطات المُشار إليها آنفا، فهي بلا شك تعني المساحة المحصورة ما بين كل أربعة أعمدة، وهو ما يُفسر أنّ خطة الإنشاء رُفعت قواعدها على اثنتي عشرة عمود رئيسي. سوف لن يكون من السهل أن نبحث عن مسافة حقيقية تفصل ما بين كل عمود وأخر، ولكن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد، أنّ المسجد الجامع هُنا في تاقدمت قد لا يختلف كثيرا عن وصف جامع مدينة سدراتة الواحية في ورجلان[17]، وهذا ليس بالأمر المفاجئ إذا كان من أسسوا الجامع -مثل ما اشرت في الأعلى- هم الإباضية أنفسهم المهاجرين من تاقدمت.

لقد جرت العادة أنّ يكون المنبر موجود في جميع مساجد صلاة يوم الجمعة لمخاطبة المصلين من سكان الحاضرة، وحتى قسم كبير من مجتمع الريف القريب الذين يحضون بفرصة الوصول إلى المدينة. ومن دون نقاش أنّ يكون المنبر موجود فعلا في المسجد الجامع منذ لحظة تأسيسه، بل إنّ هذا المنبر الذي كان يصعد عليه أئمة البيت الرستمي لايزال إلى يومنا هذا يفرض أهميته بكيفية اسكاتولوجية عند بعض المجتمعات الإباضية، وهو أمر تكشف لنا عنه الباحثة البلجيكية فرجينو بريفو (Virginie Prevost) في دراستها حول المساجد الإباضية في بلاد المغرب[18]. على كُل حال، لم نعثر على أي إشارة تفيد باستخدام المنبر إلا في سنة متأخرة قليلا (336هـ/947م) وذلك على خلفية إقدام الخليفة الفاطمي المنصور بالله على إحراقه بعدما استحوذت زناتة على المدينة لفترة كانت وجيزة تم فيها أو بالأحرى تم على المنبر الدعوة لصالح الأمويين في الأندلس، وتحديداً لعبد الرحمان الناصر[19].

2- مساجد أُخرى معطياتها قليلة جداً: خلال فترة إقامته بالمدينة شاهد ابن الصغير أنّ لكل جماعة إلا ولها رحبة ومسجد خاص بها، واكتفى بذكر مثال عن الكوفيين والبصريين والقرويين كجماعات مستقرة دون أنّ يتطرق إلى إيراد مصليات خاصة بالجماعات المحلية (البربر)[20]، والسبب لأن الأهم بالنسبة لديه كان هو الاعتراف بالعناصر الوافدة إلى هذا الفضاء الذي تتحكم فيه السلطة الإباضية. كما يجب علينا أن لا نُنكر بأنّ ابن الصغير أشار في إخباريته عن غير قصد إلى وجود مسجد بالقرب من مركز المدينة مثلما أشرنا إليه منذ قليل[21]، وآخر وُجد في أعلى نقطة من المدينة كان يصعد إليه أبو اليقظان محمد بن أفلح قبل فترة خلافته من أجل مناقشة القضايا المتعلقة بالعامة نيابة عن شقيقه الإمام أبو بكر[22]، وهو ما نعتقد أنّ يكون وضعت أساساته على عتبة الهضبة الشمالية[23]، كما لا نستبعد أنّ يكون هذين المسجدين ملكيتهما لنوع محدد من الجماعات المستوطنة داخل المدينة.

وبما أنّ كُل رحبة تتضمن مسجد خاص، سيكون علينا أن نعترف منذ البداية بعدم سهولة تحديد اتجاه مواقعها المجالية إلا من خلال ضبط هذا التقسيم الذي يوضح من دون جدال الجهوية في توزيع الأحياء الحضرية (بمعنى تصنيف كل حومة اعتماداً على حساب الجهة أو الجالية القادمين منها)، لكن حتى هي الأُخرى معطياتها شبه مستحيلة خصوصا وأنّ المصادر الإخبارية لم تكن لها الرغبة في تحديد مجالات هذا التوزيع. كما علينا أنّ نعترف مرة ثانية أننا لا نعلم أي شيء عن عددها، ومع ذلك فهي لا تبدو قليلة بحكم أنّ المدينة كانت متشبعة للغاية بالنشاط الديني، ولابأس أنّ نكتفي على وجه الاستئناس بما أشار إليه ابن الصغير لوقت الإمام أبو حاتم، بحيث نهنا أنّ مساجدهم كانت عامرة[24].

3- مصلى الجنائز: لقد تكلم ابن الصغير أنه شاهد بنفسه الإمام أبو اليقظان وهو في مصلى الجنائز ينتظر الفراغ من دفن رجل مات من وجوه الناس[25]، ولكن مع الأسف لم يُكلمنا هو ولا غيره عن الحيز المجالي الذي كان يتوطن فيه هذا المصلى بالتحديد؛ فمن خلال النظر إلى الحاجة التي يُمكن أنّ يقدمها المبنى لا نستبعد أن يكون إنشاؤه بمحاذات المقبرة حتى يسهل من مأمورية الصلاة على الميت قبل الشروع في الدفن مباشرة، وفي هذا الصدد لقد استطاع الباحث الفرنسي كادنا (Pierre Cadenat) بحكم التخصص والتجربة في مجال الدراسات الأثرية أنّ يشاهد وجود مقبرة في الجهة الغربية للموقع، وذلك اعتماداً على

ملاحظته لمجموعة من الأحجار التي يقول أنها منتظمة الاتجاه[26]، هذا ولا نظن أنه تعرض إلى فتح أي واحد منها[27]، رغم أن الباحث استثمر التفتيش في محتويات الكثير من المدافن التي لها علاقة بالفترة القديمة داخل الفضاء التيهرتي باعتبارها خزان معرفي مهم للغاية، خصوصا ما يتعلق بنقائش القبور[28].

ومهما يكن من أمر، فالأكيد أنّ هذه المقبرة مُرتبطة أساساً في حدها الشرقي "اتجاه القبلة" بوجود مبنى أرضي ذو غرفة واحدة فقط، وهي تبدو ضيقة نسبيا، أعتقد من خلال موقعه أنه مصلى الجنائز، كما تجدر الإشارة أنه الوحيد الذي استطاع أن يحافظ نسبيا على سلامته مقارنة مع باقي العمائر الأخرى[29] *(أنظر الصورة رقم01)*. ومن أجل الاستدلال أكثر حول ما نتصوره، سيكون من حسن حظنا أن الباحثة فرجينو بريفو (Virginie Prevost) قد نوهت إلى مثل هذه الوضعيات النادرة من التصميم الأرضي للمساجد الإباضية والتي قارنتها على نطاق مغاربي واسع، (مع أنني أستثني زيارتها لمواقع تيهرت الرستمية)، فهي تُشير مثلا في منطقة وادي ميزاب أنه يوجد مساجد صغيرة في المقابر وحتى في بساتين النخيل تحتوي على غرف مدفونة تحت الأرض. ولكن ما يدعونا للتساؤل هنا، هل هذا التنسيق الهندسي له غرض معين؟ أعتقد أننا بالكاد نفتقر إلى إجابات تكون مقنعة[30].

الصورة رقم (01): مصلى الجنائز في موقع الحافة الغربية من المدينة.

لابأس أنّ نغتنم الفرصة في هذا السياق المتصل لما يمكن أنّ يفسر لنا عن هوية مبنى آخر ذو تصميم أرضي مماثل نجده يقع في أعلى الهضبة الجنوبية *(أنظر الصورة رقم 02)*، بحيث أنّ الباحثة نفسها تفضلت بما فيه الكفاية لتوضيح أنّ مثل هذه الوضعيات المصممة ليس من المُؤكد أنّ الغرض الأساسي منها لتكون غير مرئية، كما بينت أيضاً أنّ الأمر رُبما لم يقتصر فقط على مثل هذه المصليات الجنائزية لوحدها، وإنّ كانت هي الأكثر بلا منازع إلاّ أنه يوجد البعض من المرافق العمرانية الأخرى التي صممها المهندسون خصيصا لتكون مدفونة تحت الأرض، وقدمت في الأخير فرجينو تصورها المحتمل عن خدماتها كمصانع للزيت أو النسيج[31]، هذا التحليل للباحثة يدعونا لنعتقد أنّ المبنى أمامنا في الصورة ربما خصص أو صمم كذلك ليكون أحد مصانع الرستمين، وهذا بالطبع في حالة واحدة فقط، وهي إنّ لم يكون أحد مصليات الأوقات.

الصورة رقم (02): مبنى ذو تصميم أرضي في الضفة الشرقية من أعلى الهضبة الجنوبية.

4- الكنيسة: تأكيد على علاقة الموقع بالماضي اللاتيني: لوحده ابن الصغير من استهدف الإبلاغ عن وجود كنيسة في المدينة، وذلك باعتبارها من أهم مظاهر التدين الذي ما من شأنه أنّ يُقنن الحضور المسيحي الذي بدأ يكتسح هذه الناحية بالملموس منذ البدايات الأولى للقرن الثالث ميلادي[32]. وإنّ كان في حقيقة الأمر أنّ الإشارة التي تناولها ابن الصغير بالذكر على مرتين فقط في نص أخبار الأئمة لا تُعالج مسألة المسيحية في داخل النطاق الحضري، كما لا يُعالج أي غرض أخر من أشكال التصميم، وإنما تم رصدها مرتبطة في

سياقها التاريخي بوقائع من التمردات على رأس الحكومة لم تكن تخلو أبداً من خطورة تفكيك مملكة بني رستم؛ يتعلق الأمر في الأولى بأحداث فتنة مقتل ابن عرفة التي تحينها محمود بن الوليد كفرصة سانحة للإطاحة بالإمام أبو بكر بن أفلح من على عرش المدينة فـ"صعد إلى أعلى موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة" وأخذ يدعو فيه الناس للالتفاف من حوله[33]؛ أمّا الثانية فهي تتعلق بنهايات الفتنة المشهورة التي وقعت مجرياتها بين الإمام أبو حاتم مع عمه أبو يعقوب بن أفلح، حيث يذكر المؤلف أنّه تقدم فيها رجلين من وجوه الناس وخاصتهم يعرفان بابن دبوس يقولان: "من أراد العافية فليصعد إلى الكنيسة" ويُضيف أنّ دعوته تلك لاقت إقبالا واسع من قبل مستخدمي الحاضرة، باستثناء رهط قليل جداً من أنصار يعقوب بن أفلح الذي يُفترض أنّه كان يمثل السلطة المركزية أنذاك[34].

وعليه، رغم غياب أي نوع من الإشارات المباشرة عن هذا الموقع الاستراتيجي والهيكل العام لهذا المبنى، فإن تصورنا لا يكاد يخلو من وجود ساحة تابعة لهذه الكنيسة حتى يتسنى للأفراد "المكترثين" التجمهر عند الدعوة إليها والسماع لخطاب القيادات المعارضة. أما بخصوص ما يتعلق بتحديد موقعها بالذات من الفضاء الحضري، فإنه قد صدر عن ابن الصغير -كما هو مُلاحظ في النص المقتضب في الأعلى- أنّ هذه الكنيسة تركب مرتفع داخلي للمدينة، وهو ما يتناسب حقيقة مع الناحية الشمالية الشرقية، *(أنظر المشهد الجوي للصورة رقم 03)* والسبب الأساسي الذي يجعلنا نُؤكد على هذا الجزء المرتفع دون الهضبة الجنوبية المشرفة على الهيدرونيم وادي تاتش (واي تيارت حالياً)[35]، أنّ المتمرد محمود بن الوليد لما تحققت أمنيته في التعبأة والتحضير لمحاربة الإمام أبو بكر بن أفلح، وهي المجزرة التي وقعت فعلا، رغبت ابن الصغير على ترتيب اتجاه كل واحد من الفريقين بحيث قال: "وزحف الناس من أعلى المدينة من ناحية الشرق وزحف قرب أبي بكر وشيعته وخاصته من الغرب[36]". وللتنبيه، علينا أن نُمعن جيداً في هذا التحديد حتى يتسنى لنا فهم خارطة التطور الزمني للكنيسة فيما هو قادم.

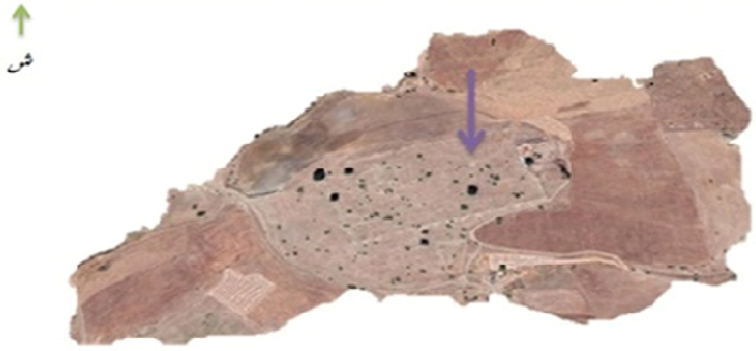

الصورة رقم (03): موقع الكنيسة في أعلى مساحة الهضبة الشمالية للمدينة.

رغم أنّ الكنيسة وجودها أمر ثابت لا جدال فيه، إلا أنّ دورها بقي غير واضح، خُصوصا خلال فترة المدينة/العاصمة الإباضية التي تعد المرحلة الوحيدة للحديث عنها، فضلاً عن اعتبارها المرحلة أو البيئة الرستمية الأكثر نشاطاً وانفتاحاً على أكثر من تيار ديني ومذهبي، ومع ذلك سيكون من الخطأ إذا اعتقدنا أنه خلال هذه الفترة بالذات كانت كمقر تشغله الطقوس المسيحية، ولعل الدليل الأهم والأوحد في ذلك أنّ ابن الصغير قد صرح بلسانه أنّ هذه الكنيسة كانت لوقت الإمام يعقوب بن أفلح دار لرجلين، يُقال لأحدهما أحمد والثاني محمد وهُما يعرفان بابن دبوس، علماً أنه أكد أنّ مفاتيحها موضوعة بين يديهما، وأن اقامتهم الدائمة كانت موجودة خارج المدينة على مسافة تبدو بعيدة نسبيا[37].

ومن هُنا يدعونا الأمر لنتساءل مليا، لماذا يتم بناء هذه الكنيسة على أرض جديدة وهي لا تستغل قيمة احرازها؟ ثم ثانيا لماذا لم تتبنّي السُلطة الحاكمة هذه الكنيسة، وإنما بقيت تحت تصرف ممثلين عن أكبر العشائر المكونة للمجتمع التهرتي في ذلك الوقت؟ وبعيداً عن كل احتمال سيكون من الخطأ مرة أخرى أنّ نتصور بأنّ السادة الجدد (الرستميين) هم من انشؤوا هذه المؤسسة الدينية حتى تكون سابقة تاريخية في عصر المدن الإسلامية المتقدمة، لأنه حقيقة لا شيء يُمكن أنّ يؤكد لنا ذلك.

الأكثر قبولاً أنّ الجذور التاريخية لهذا الصرح الديني يعود إلى مرحلة سابقة عن الفتح الأموي الذي قاده عقبة بن نافع خلال ستينيات القرن الأول الهجري (10م)، وإنّ كانت المصادر لا تسمح بالوقوف على تاريخ محدد لبنائها، فإنه ليس من المستبعد أنّ تكون هذه الكنيسة هي نفسها تنقارتينسيس/ tingariensis الرومانية التي بقيت مفقودة في قسم موريطانيا القيصرية، والتي تمت الإشارة إليها مرة واحدة فقط في سنة 482م على أنها كانت شاغرة ومن دون مطران يُديرها[38].

وسواء إذا كانت هي نفسها تنقارتينسيس أم لا، فإنّ أكثر ما يمكن أنّ يُوضح البناء القديم لهذه الكنيسة هو وجود دليلين مهمين، الأول ما تكشف لنا عنه شهادة الحسن الوزان، والتي تُعد ذات قيمة عندما لا يوجد ما يقاس عليها في وصف المخلفات المادية للموقع خلال القرن العاشر الهجري (16م)، فننقل ما جاء في روايته باختصار ومن دون تحريف: "تقدمت مدينة قديمة جداً أسسها الرومان حسب قول بعضهم ... وما زال بها أنقاض معبدين كبيرين كانت تعبد فيهما الأصنام[39]". ومع ذلك يجبُ علينا أنّ نفهم التنوع الواقع في محتوى شهادته التي تنقسم إلى ثلاث معطيات كالتالي:

- الشق الأول فيما يفي بأنّ الموقع هو من تأسيس الرومان، بحيث يَظهر أنّ الوزان استعمل هُنا روايات تبقى مجهولة لدينا مدام أنه لم يكشف عن نوع مصادره، والمهم في ذلك أنّ هذا الخبر الذي يبدو كان متداول بكثرة هو في حقيقة الأمر منقول عن سابقيه وليس من اجتهاده الخاص.

- المحتوى الثاني والرئيسي، ما شاهده بعينه وهذا ليس يحتمل التشكيك بما أنّه فعلاً زار الموقع ووجد آثار المعبدين على حد تعبيره، غير أنّه لم يعمل على ابداء دقيق لمواقعهما، وعما إذا كانا متصلين فيما بينها أم أنّ لكل واحد جهة معينة؟

- وأخيرا ما يطبعه بصورة وهمية، بحيث يبين في اعتقاده أنّ هذين المعبدين هُما لممارسة الطقوس الوثنية، وإنما يعكس هذا الأمر عدم معرفته بمسيحية الرومان، وحتى عموما بتاريخية الأديان في بلاد المغرب التي ركز بشكل لافت على وثنيتها، وقد تطرق استاذنا البروفيسور علاوة عمارة بالتفصيل لشرح هذه النقطة بالذات في مقالة له تحمل عنوان: "اشكالية الهوية المغاربية من خلال جغرافية الحسن الوزان[40]".

أما الدليل الثاني فهو استثائي ويُمكن أنّ يقصي كامل الشكوك السابقة بأنّ هذه الكنيسة تعود إلى فترة الهيمنة الرومانية على كامل الساحل الجنوبي لسلسلة الأطلس التلي؛ فقد أورد الطبيب العسكري الفرنسي بودانس (Lucien Baudens) الذي كانت له علاقة مطولة مع احتلال مدينة تاقدمت سنة 1841م، أنّه لاحظ على نفس هذه المساحة العلوية[41] بما نجده يتطابق فعلا ونفس الموقع الذي تم تحديده على ضوء معطيات ابن الصغير، أنها تحتوي على مقاطع حجرية لا يُمكن أبداً أنّ تكون صناعة إسلامية، فضلا عن اكتشافه لجزء من عمل روماني الأصل يقع فيه الطابق الأرضي على عمق متر واحد تحت الردوم، كما أضاف الكاتب في مقاربته الوصفية -ولا شك هو من الهواة- أنّه بفضل الفحص الدقيق للمكان تبين له وجود جدار مُغلق يبلغ سمكه 1.60سم مرتبط بإسمنت قوي إلى درجة أنه يبدو في شكل قطعة واحدة، والوجه الداخلي للجدران يبدو هو الأخر مصقول جيداً ومطلي بما يشبه الجص، ثم أشار من وراء ذلك كله أنّ المبنى كان معزز بأبواب ضيقة نوعا ما تدعمها قطع من الحجارة القوية، وأيضاً من جملة هذه الموجودات التي تحصل عليها الطبيب هو عمود (تيجان) مكسور مزين بأوراق الأقنثة، يقول أنه من المعروف أنّ يكون من الطراز الكورنثي بما يعكس الطعم العميق للهندسة الرومانية في المناطق المعزولة نسبيا[42]، غير أنّه أخطأ في الأخير عندما تسرع في الإعلان لمتابعيه أنّه يجب أنّ يكون منزل لأحد الأرستقراطيين الرومان[43].

وانطلاقا من هذا المسح الذي لم يتردد الطبيب بودانس في الإعلان عليه، صدحت الكثير من الدراسات الجغرافية والاحصائيات الفرنسية بإلحاح شديد على رومانية الموقع، خصوصا تلك التي تعود إلى فترة القرن التاسع عشر ميلادي[44]، في المقبل هناك من أوجد أحكام عامة ومبررات غير مؤسسة على دليل تم ترويجها على خلفية أنّ هذه الأثريات قد تم سحبها من المدينة الرومانية القديمة[45]، وهذا يبدو غير صحيح دونما لبس أو غموض.

عندما يُساق الحديث حول أقدمية هذه المساحة التي نستثمرها في البحث، في نظري سوف لن يكون من المفيد على الاطلاق التشبث بالنظرة الكلاسيكية التي يُصارع من أجلها بعض الدارسين في الأوساط العلمية حول حداثة موقع المدينة الرستمية[46]، والملفت للانتباه أنّ مبررات أصحاب هذه الأطروحة نجدها قائمة بالأساس على التملص من مادة خبرية رغم أنها لا تقل أهمية، وباختصار كأن استنتاجاتهم تقول أن بعض هذه المصادر لا

تتناسب والوصول الى حقيقة الكشف عن تاريخانية التعمير، في المقابل يتم ربطها يقينا بتعميم فكرة المجال البكر، وهذا لا لشيء سوى لأنّ بعض المصادر السردية في النقل عن بعضها البعض وُجدت الكتابة فيها بالطبونيم المركب تيهرت الحديثة، وبالتالي هل من الصواب حقيقة أنّ يكون هذا التعبير الأخير يقصي استخدام التعمير في الموقع؟

يُمكننا أن نضيف- بالاعتماد أيضاً على رومانية الكنيسة- ما تبينه هذه المصادر الإخبارية والجغرافية المقصية، ولرؤية أول ذكر تُعد شهادة ابن الصغير المتقدمة مهمة في الموضوع عندما تتحدث عن بداية التعمير الإباضي للموقع من خلال الإشارة إلى إحياء الموات[47]، وهو ما يوحي إلى حدوث عمل تجديدي لصنائع غير محددة بهوياتها، ولكن هي في الأصل تبدو وكأنها كانت مستخدمة من قبل. ومن جهته فإنّ مجهول مؤلف كتاب الاستبصار عند الوصول إلى وصفه هذه المدينة بالذات أكد أنها ليست قائمة على موضع جديد[48]، وهو الحال أيضاً بالنسبة مع المؤرخ الوسيطي ابن عذاري المراكشي الذي استنتج بعد جمعه للكثير من معلومات سابقيه أنها فعلا تعد من المدن القديمة[49]. هذا وليس يقتصر الأمر على التعمير الروماني في الموقع، بل ثمت ما يُبين وجود استغلال التوطين خلال عصر ما قبل التاريخ، ففي سنة 1955م توصل الباحث الفرنسي (Roger de Bayle Des Hermenss) إلى اكتشاف وجود أدوات حجرية يُقدر عددها ب:20 قطعة "l'Atérien"، ويرجح أنها تعود إلى العصر الحجري الحديث[50].

وأخيراً حسبنا حول هذا الارتباك الموجود في المادة الخبرية لربما يعود السبب فيه إلى وجود مؤسسة كنائسية لوحدها فقط- مع احتمال أنّ يكون يدعمها تحصين خاص[51]- وهو ما أحدث تضارب في الروايات المصدرية حول أصالة الموقع من عدمه، فالبعض من المؤلفين لم يُعر الموضوع أي اهتمام بما أن الغالبية العظمى من الإنشاءات هي استحداثات وسيطية ولا يمكن تحصيل أي أثر في تهميشه، في حين ركز البعض الآخر على الجانب القديم في الموقع كيفما تحصلت قيمته.

الخاتمة: في نهاية هذه الدراسة تجدر الإشارة أنّه لم يكن من السهل على الإطلاق التعامل مع هذا الموضوع في ظل غياب ما يكفي من المصادر التاريخية، ناهيك عن مشكل الخلط الذي وقعت فيه الكثير من النقول المتأخرة، خُصوصا فيما يتعلق بمسألة التمييز بين عمران المدينتين الجارتين تيهرت الأعلى التي نشرت حولها دراسة والعاصمة الرستمية.

أما على مستوى العمران الديني الذي حازت عليه مدينتنا المدروسة، فرغم غموضه في الكثير من الجوانب التاريخية والتنقيبية، إلاّ أنه ارتكز على ما هو معروف عموما في الحواضر الإسلامية الوسيطة من بناء مراكز الصلاة يتقدمهم المسجد الجامع، ثم المصليات الأخرى التي يُساهم في تنظيمها الواقفون عليها من المشايخ ووجهاء القبائل، لكن ما هو خارج عن المألوف هو المنطقة أو الجهة التي يظهر قد تأسس عليها جامع الرستميين بعيداً عن منطقة المركز، وتُترجم هذه الصورة بشكل نوعي نمط جديد في إنشاء المدن أو القواعد الإباضية.

وعلى صعيد آخر لم يكن هدف هذا العمران الديني لمحاولة الظهور به في منافسة "ابداعية" مع باقي المدن التي عاشت في نفس الفترة وإنّما الظاهر هو العكس من ذلك تماماً، بحيث تميزت هذه المباني فيما يبدو على لسان المصادر بالبساطة وعدم المبالغة في انشاء التزيينات، وطبعاً هذا يشمل المدينة ككل، والسبب في ذلك على الأرجح كان كمبدأ متأصل في سادتها وليس إلى الحاجة لأن الثروة كانت أصلا موجودة.

أما في جانب الكنيسة، فيرجع دورها أنها كانت مُغلقة في معظم الوقت الرستمي، ولا شيء يشير أنّ الصلاة كانت فيها موجودة سواء المسيحية أو الإسلامية؛ ثم إنّ ظهورها كمركز قديم على الموقع الذي استحدثته الجماعات الرستمية القادمة إلى موقع المدينة بعد قرن من الفتح الأموي، فهذا لا يقلق ولا يُقلص على الإطلاق من قيمتها التاريخية والحضارية التي أظهرتها لنا المصادر.

الهوامش:

1- نَعرض على سبيل المثال: Pierre Cadenat, « Recherches à Tihert-Tagdempt 1958–1959», *Bulletin d'Archéologie Algérienne,* 7, (1977). رشيد بورويبة، مدن مندثرة تاهرت -سدراتة -أشير -قلعة بني حماد، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر. (لكن الملفت للنظَر في كتاب بورويبة حول تهرت أنه لم يقدم معلومات جديدة وإنّما ركز أساساً على ترجمة الدراسة التي تَقدم بها الأثريان الفرنسيان: Georges Marçais et A Dessus-Lamare, «Recherches d'archéologie Musulmane:Tihert Tagdemt », *Revue Africaine,* 1946.) فاطمة جلجل، موقع تهرت الأثري، مذكرة ماجيستر، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2012-2013م؛ محمد بوركبة، "النمط العمراني لمدينة تهرت في العهد الرستمي"، *مجلة منبر التراث الأثري*، جامعة أبو بكر بالقايد، تلمسان، العدد 1، (2013م)؛ سعاد بوجلابة قوزية، "تاريخ مدينة تهرت الأثرية"، *مجلة الحكمة للدراسات التاريخية*، *العدد 4*، (2016م)؛ فاطمة مطهري، تاريخ وحضارة تهرت الرستمية، النشر الجامعي الجديد، الجزائر، 2017. وغيرهم ...

2- البكري، المسالك والممالك، تح أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992م، ج2، ص 734-735. هذا ونجد ينقل محتوى ما جاء فيه كل من: الدرجيني، طبقات المشائخ، تح إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، ج1، ص43؛ الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، ج2، ص 8.

3- يتعلق الأمر هنا بالرواية الميثولوجية التي تقص لنا كيف تمت الدعوة للوحوش بترك المدينة، وأيضاً مساعدتهم حتى في تأهيل الموقع مثلما حصل هذا التأليف الأسطوري أولا عندما بادر عقبة بن نافع إلى تمصير مدينة القيروان أنظر: أبو زكريا، سير الأئمة وأخبارهم، تح إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص 81. وبما أن للمؤلفين الإباضيين توجه في النسخ عن بعضهم البعض نجد أن الحكاية أيضا

موجود في كتاب الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص 41 ومن بعده الشماخي، كتاب السير في الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس هجري، تح محمد حسن، أوربيس للطباعة، تونس، 1995م، ص43 -44.

4- أنظر على سبيل الذكر تأسيس المسجد الجامع في كل من البصرة والكوفة والفسطاط، والقيروان. فالدراسات في موضوعاتها كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك نشير إلى التحليل الموجود عند: محمد حسن، القيروان في عيون الرحالة، المجمع التونسي للعلوم والأدب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 2009، ص 33-35.

5- هذه القصة مسجلة عند كل من: الدرجيني، النص، ج1، ص41 . الشماخي، النص، ص43 -44. ولكن قبل ذلك علينا أن نفحص جيداً هذا النوع من النقول المتأخرة في قضية المزج بين جامعي المدينتين انطلاقا من اعتماد مقاربات زمنية وجغرافية حول المكان.

6- تتفق جل مصادرنا المكتوبة أنَّ المدينة يشملها وجود مسجد جامع واحد فقط، أنظر مثلا ما صرح به: أحمد المهلبي، المسالك والممالك والمعروف بكتاب العزيزي، تح تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، 2006، ص 48؛ إسحاق بن الحسين اليمني، أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، تح فهمي سعيد، عالم الكتب، بيروت، 1988م، ص 100؛ البكري، المصدر السابق، ج2، ص 735.

7- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر وابراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 29.

8- نفسه، ص 30. --- 9- نفسه، ص 91.

10- لقد نبه ابن الصغير إلى هذا المصلى عند عرضه لصراع دامي كان قد استجد بجواره فور وقوع حادثة فتنة مقتل ابن عرفة. ومع ذلك نشير أننا لم نستطع التعرف على اسم ذلك المسجد، ليس لأنَّ ابن الصغير لم يرشد إليه، وإنما للأسف الشديد تم افتقاده جراء السقط الذي وقع في النص الذي تم تحقيقه، لاحظ: المصدر نفسه، ص 69.

11- راجع جميع الدلائل الفقهية الموجودة في كتاب: أحمد بن تيمية، مجموعة الفتاوى، تخريج عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2005م، ج31، ص 121. مع الدلالة أنَّ الجمع بين مسجدين في المدن الإباضية سواء في المغرب أو المشرق لم يسجل أنه حدث من قبل على الإطلاق.

12- المقديسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مراجعة محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 228.

13- راجع كل من: علي حملاوي، "المنشآت الدينية بمدينة سدراته (ورقلة) ملاحظات أولية حول المسجد الجامع"، *مجلة بحوث*، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، العدد 6، (2000م)، ص 67-76. Cyrille Aillet et patrice Cressier, « Un carrefour du Sahara médiéval : Sedrata (Ouargla, Algérie) . Bilan et perspectives historiques et archéologiques », *Les séminaires du CNRA. Éditions 2013*, (juin 2014), p. 125; Même auteur, « La dame de Sedrata: retour sur l'entreprise archéologique de Marguerite van Berchem (1946-1965) », *Ikosim*, 5, (2016), p. 102-105.

14- ابن الصغير، المصدر السابق، ص 80-81. --- 15- نفسه، نفس الصفحة.

16- فهي فترة النشاط العلمي لمحمد بن يوسف الوراق في السنوت ما بين (318-359هـ/930-970م) والذي كما سبق وأن اشرت بأن البكري اعتمد فيما بعد على نقل تأليفه في أخباره تهرت ليس إلا، البكري، المصدر السابق،ج2، ص 734؛ يُنظر كذلك ابن عذاري المراكشي في حديثه المنقول حول عدد البلاطات التي كانت موجودة، المصدر السابق، ج1، ص 207.

17- يحتوي جامع مدينة سدراتة الواحية على بيت فيه اثنتا عشرة دعامة أسطوانية الشكل، وهي مرتبة على ثلاثة صفوف، تشكل خمسة أسا كيب وأربع بلاطات، وكانت عشرون قبة مربعة القاعدة تعلو بيت الصلاة. أنظر دراسة: رشيد بورويبة، "الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة"، *مجلة الأصالة*، العدد 45، (1975م)، ص 189.

18- تشرح الباحثة أنَّه يُنظر عمومًا لعدم وجد منبر في المساجد الإباضية المغاربة، وهذا ببساطة لأنهم منذ سقوط مملكة الرستميين في تهرت لم يعد الإباضين يؤمنون بوجود إمام مستقل على رأس مجتمعهم، وبالتالي هم لا يعتبرون هذه القاعدة صحيحة في جوامعهم، خوصا في منطقة وادي ميزاب. Virginie Prevost, « Les mosquées ibadites du Maghreb», *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, Les mosquées. Espaces, institutions et pratiques*, 125, (juillet 2009), p. 223.

19- ابن حماد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح عبد الحليم عويس والتهامي نقرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1981م، ص 77.---- 20- ابن الصغير، المصدر السابق، ص 32. --- 21- نفسه، ص 69. --- 22- نفسه، ص 63.---- 23- يبدو أنَّ الاستنتاج الذي خلصت إليه الباحثة الأثرية فاطمة جلجل في تقديرها أنَّ أبو اليقظان كان يصعد إلى سطح هذا المسجد وليس إلى منطقته المرتفعة دون شك هو تصور يحتاج إلى جرعة من الدقة. أنظر فاطمة جلجل، المرجع السابق، ص50.---- 24- ابن الصغير، ص 101. ---- 25- نفسه، ص 80.

26- Pierre Cadenat, *op. cit.,* p. 397.

هذا وتجدر الإشارة أنَّه لا يزل إلى اليوم البعض من مشاهدها واضحة الاصطفاف في نفس هذه الجهة المحدد على حافة الطريق الذي يربط عاصمة الولاية تيارت مع مشرع الصفا. كما نلتمس أيضاً أنَّ الباحثة فاطمة مطهري استخدمت في دراستها تقليد لطريقة المنقب كادنا السابقة في محاولة اقتراح موقع ثاني لمقبرة تقول أنها موجودة في الجهة الشمالية عند نهاية المنحدر القريب من المنبع المائي، كما توضح في ذات السياق أنَّ هذه الأحجار المنتظمة والغير مبنية في هيئة القبور الصحراوية تخص الأئمة الرستميين وحدهم (فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 200.) غير أنّه من الصعب بالنسبة لنا التصديق بهذا الطرح كون الباحثة ليست أثرية هذا من جهة، وفي نفس غياب ما يؤكد رأيها من المصادر، خصوصا تراجم الإباضية المعفية جملة وتفصيلا من هذا الكلام الذي لا يُشير البتة أنّ الأمراء الرستميين قد أسسوا لأنفسهم مساحة قبورهم الخاصة كما هو معمول بشكل لافت عند بعض الملوك قديما وحتى حديثا.

27- لا شك أنَّ المانع يعود بالأساس إلى مقدار ومكانة هذا المقبرة التي لم تكن مجهولة عند الإباضين على مر الزمن، كما لا يخفى أنها شكلت إلى وقت قريب جداً رحلة الحج الموسمي لتذكر جو الأئمة ومن نحى سبيلهم من الزهاد، وربما خير مثال على هذا زيارة الباروني التي قادته إلى الموقع في سنة 1895م أين تحصل على شهادات مهمة جدا استحضرها من عند مستوطنين كان من بينهم معمر فرنسي، أين أكدوا له جليا بوجود مقبرة في هذا الموقع بالذات بجوار مصلى الجنائز الذي أسماه هو بالغار، وأقروا له أخيراً فيما هو متداول من الذاكرة الجماعية أنها تظم كذلك رفات أجساد الأئمة الرستمين الخمسة. أنظر: الباروني، الأزهار الرياضة في أئمة وملوك الإباضية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1986م، ص 304. صراحة أستغرب لماذا الباحث كادنا لم يوظف مثل هذه المعطيات أثناء دراسته التي قام بها في سنتي (1958-1959م) والتي كانت متداولة إذ ذاك الوقت بقوة وحتى إلى اليوم، وركز فقط فيما يقول أن أفكاره مبنية على معطيات أثرية محضة !

28- نذكر على سبيل الإشارة : Pierre Cadenat, «Curieuse tombe à étage dans une nécropole antique de Tiaret», *Antiquités Africaines,* 3, (1969), pp. 225-236.

29- لتفاصيل أكثر حول طبيعة الشكل ومقاييس البناء فهي مسجلة بدقة عند: فاطمة جلجل، المرجع السابق، ص 23. أنظر كذلك المخططات في الصفحتين 85 و86 من منفس المرجع، بالإضافة إلى الصورة المعلقة في الصفحة 109.

30- تقترح الباحثة تصور غير مقنع تماما ومن دون أي دليل تاريخي حين ذهبت إلى الاعتقاد في قولها أن مثل هذه التصاميم يجب أن تكون مرتبطة بواحدة من الطوائف البربرية في عبادة الكهوف قديما ولم يكن لها القدرة للتخلي عليها حتى بعد الأسلمة Virginie Prevost, Les mosquées, *op. cit.*, p. 227.

31- Ibid., p. 226.

32- أنظر على سبيل المثال أقدم نقش تذكاري مخلد في محيط المدينة تهرت القديمة كان قد حرره فيروس « Verus » في حوالي سنة 211م، والذي يعد بمثابة التعبير عن نصرة المسيحية في المنطقة. Pierre Cadenat, «Notes d'archéologie tiarétienne», *Antiquités africaines,* 24, (1988), p. 46.----33- ابن الصغير، المصدر السابق، ص 69. --- 34- نفسه، ص 100.

35- وهو الوادي الذي يلتف حول المدينة من جهتها الجنوبية ليصب في الوادي الكبير مينا، ويعد الجغرافي البكري هو أول من أحدث ذكر لهذا الطبونيم "تاتش". البكري، المصدر السابق، ج2، ص734.----36- ابن الصغير، المصدر السابق، ص 69.

37- نفسه، ص 100. ومع ذلك فإن غياب الممارسة الدينية داخل هذه المؤسسة لا يمكن بأي حال أن ينفي وجود جماعات مسيحية في داخل المدينة أو في فضائها القريب.

38- Oscar Mac Carthy, *Géographie physique économique et politique de l'Algérie*, Dubos Frères imprimeurs-libraires, Alger, 1858, p. 406; Odilon Niel, *Géographie de l'Algérie*, Legendre libraire, Bône, 1876, p. 462; Louis Piesse, *Itinéraire de L'Algérie de la Tunisie et de Tanger*, librairie Hachette, Paris, 1882, P. 270 ; Mgr Toulotte, *Géographie* de l'Afrique chrétienne Mauretanies, imprimerie Notre-Dame-des-Prés, 1894, P. 164 . في حين ثمت وجود مساهمات عديدة حاولت أن تجعل موقعها في داخل المركز السياسي اللاتيني الذي مثلته المدينة الجبلية، ولكن من دون أي دليل حقيقي سوى أنها جاءت كمحصلة لتطابق طوبونيمي. والشيء الجدير بالملاحظة في هذا الشأن أنه إذا صح فعلا أن الكنيسة هي نفسها تنقارتينسيس الرومانية فإن الإشارة إلى وجود ما يعرف بكرسي الأسقف في هذه المؤسسة التي وصلت إلى مرحلة متأخرة من الفراغ يحيلنا أنها كانت فيما قبل تتحكم في كنائس أخرى داخل نفس الأبرشية من خلال تعين وكلائها، كما أنها كانت بمثابة النواة الأكثر قوة والمحفز لتمسيح هذه الجهة الحدودية على خط الليمس الثاني.

39- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج2، ص 40.

40- علاوة عمارة، "إشكالية الهوية المغاربية من خلال جغرافية الحسن الوزان"، المغرب في عهد الوطاسسن من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان، *منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية*، 2011م، بشكل خاص ص 73.

41- التي استغل فيها الأمير عبد القادر جانب لإقامة مدينة عاصمته الجديدة بعد معسكر بداية من شهر ماي سنة 1936م.

42- حول تحليل هذا النوع من النحت الروماني راجع على سبيل المثال: Eliane Vergnolle, « Fortune et infortunes du chapiteau corinthien dans le monde roman » *Revue de l'Art,* 90, (1990), p. 21-34 ; Marcel Durliat, « Le chapiteau corinthien dans l'art ro*man », Bulletin Monumental,* 149-3, (1991) pp. 319-320

43- Lucien Baudens, *Relation historique de l'expédition de Tagdempt*, Germer-Baillière, Paris, 1841, p. 21.

44- أنظر مثلا كل من: Conrad Malte-Brun, *Précis de la géographie universelle, ou Description de toutes les parties du monde,* Furne et Cie, Libraires-Éditeurs, Paris, 1841, P. 560; Charles Lallemand, *L'Ouest de l'Algérie. Réseaux exploités par la compagnie de l'Ouest-Algérien, lignes de l'Ouest-Algérien et de la Cie franco-algérienne*, Challamel et Cie, éditeurs, Paris, 1891 p. 159; Pierre Larousse, *Grand dictionnaire universel du XIXe siècle*, Administration du grand Dictionnaire universel, Paris, 1875, p. 1396; Gasquet Amédée, *Cours de géographie générale: Europe, Asie, Afrique, Amérique, Océanie, à l'usage des élèves des classes supérieures et des candidats aux écoles spéciales du gouvernement*, Delalain frères, Paris, 1881, p. 521; Bellanger Charles, *Histoire et géographie des colonies de la France: et des pays placés sous son protectorat, d'après les documents les plus récents*, E. Dentu Editeur, Paris, 1886, p. 60; Conty Henry, *Algérie-Tunisie*, administration des Guides-Conty, Paris, 1901, p. 110.

45- كما هو الحال موجود عند: J. Canal, «Tiaret: monographie ancienne et moderne*», société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran,*1900, p. 04 ; Georges Yver, *Gouvernement général de l'Algérie: Collection de documents inédits sur l'histoire de l'Algérie après 1830 Correspondance du capitaine Daumas, consul à Mascara (1837-1839),* A. Jourdan, Alger, 1912, P. 205.

46- نَذكر هذا عندما نجد البعض يتحدث بإلحاح شديد أنّها منطقة جديدة لم تكتشف أو بالأحرى لم تُعمر إلا من طرف الرستميين، ينظر على سبيل المثال: فاطمة مطهري، المرجع السابق، ص 191؛ سعاد بوجلابة قوزية، المرجع السابق، ص 78. وغيرهم ...

47- ابن الصغير، المصدر السابق، ص 25. ومع ذلك نُلاحظ أنَّ الباحثين محمد ناصر وابراهيم بحاز لم يتقبلا هذا القول لصاحبه أثناء عملية إعادة مراجعة وإخراج نص ابن الصغير عن النسخة التي وضعها موتلانيسكي، لكن من دون تقديم ما يعزز وجهة نظرهما. أنظر : المصدر نفسه، نفس الصفحة الهامش رقم 2.

48- مجهول مؤلف كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 178.

49- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس و المغرب، تح بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2013م، ج1، ص 207.

50- اين وجدت بالضبط على الضفة اليسرى من الوادي عند الهضبة الصخرية بمسافة قيمتها 50م، بحيث تُشير الإحداثيات إلى: x = 369.3 و y = 228.1. ويبدو على الأرجح أنها تعود في عمقها التاريخي إلى العصر الحجري الحديث، راجع كل من: M. de Bayle des Hermens et R. de Bayle des Hermens, «Influences sahariennes dans le néolithique de la région de Tiaret*», Bulletin de la Société préhistorique française,*. 60, (1963), p. 85. R. de Bayle des Hermens, «Les industries préhistoriques de la cité Fronzy, Tiaret- Algérie », *Bulletin de la Société préhistorique française*, 61, (1964), p. 75; R. de Bayle de Hermens, «Gisements préhistoriques inédits de la région de Tiaret», *Bulletin de la Société préhistorique française,* 61, (1964) p.453; Pierre Cadenat « Les gisements préhistoriques de Mesguida Tiaret », *Bulletin de la Société préhistorique française,* 66, (1969), p. 151. ثمت يوجد عمل آخر لكن مع الأسف لم تتح لي فرصة الاطلاع على ما جاء في محتواه: R. de Bayle des Hermens, «La station préhistorique du Bois de Pins: Route Tiaret-Tagdempt (Oranie), *Congrès préhistorique de Monaco, XVIe session, 1959*.

51- ليس يجود في المصادر أي دليل مباشر من شأنه أنّ يؤكد هذا الطرح، ومع ذلك نعلم أن الكنيسة موجودة في منطقة شبه معزولة، ومن الإشارات الأخرى التي نستحضرها للدلالة على ذلك ما تقدم به الطبيب بودانس في حوليته حين ذكر أنه بجوار المبنى "الكنائسي" كانت هناك قطع حجرية، وقبله تكلم الحسن الوزان عن وجود معبدين، لا نستبعد أنْ يكون الأول كنيسة والأخر هو التحصين لا أكثر ولا أقل.